حياتنا الثقافية والفكرية : 'مكانكْ سرْ '

20-10-2002

محمد سليمان

تعاني حياتنا الثقافية والفكرية بشكل كبير من غياب التأثير الفعال في الواقع ، وكأن الثقافة والمعرفة تسير في واد والواقع في واد آخر ، وإذا كانت السلطة السياسية تتحمل عبئا كبيرا من هذه المسؤولية ، فإن هناك عبئا آخر على المثقفين أنفسهم الذين لم يعملوا على صناعة المعرفة العملية القادرة على الاقتراب المنتج من الواقع وهذه الحالة تصيب مراكز الأبحاث أيضا بدرجة كبيرة ، والتي – باستثناء عدد قليل منها – لا نجد أن الاهتمام البحثي لها يسير في إطار خدمة المشروع السياسي الثقافي للأمة كما هو الحال في الدول الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية فيما يعرف ببنوك التفكير ، والتي لها دور كبير في صنع السياسة الأمريكية من خلال الأبحاث أو الكفاءات البحثية التي تصقل قدراتها وتوظف طاقاتها . وبالتالي ونحن نمر اليوم في مرحلة

بقلم [محمد سليمان]

تعاني حياتنا الثقافية والفكرية بشكل كبير من غياب التأثير الفعال في الواقع ، وكأن الثقافة والمعرفة تسير في واد والواقع في واد آخر ، وإذا كانت السلطة السياسية تتحمل عبئا كبيرا من هذه المسؤولية ، فإن هناك عبئا آخر على المثقفين أنفسهم الذين لم يعملوا على صناعة المعرفة العملية القادرة على الاقتراب المنتج من الواقع وهذه الحالة تصيب مراكز الأبحاث أيضا بدرجة كبيرة ، والتي – باستثناء عدد قليل منها – لا نجد أن الاهتمام البحثي لها يسير في إطار خدمة المشروع السياسي الثقافي للأمة كما هو الحال في الدول الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية فيما يعرف ببنوك التفكير ، والتي لها دور كبير في صنع السياسة الأمريكية من خلال الأبحاث أو الكفاءات البحثية التي تصقل قدراتها وتوظف طاقاتها . وبالتالي ونحن نمر اليوم في مرحلة تحولات تاريخية ، تدعو الحاجة الحقيقية لبناء استراتيجيات ثقافية لمواجهة الأزمنة القادمة ..

نحن والتراث الإصلاحي

ثمة اتجاه كبير في الفكر الإسلامي اليوم في الرجوع إلى التراث الإصلاحي في عصر النهضة مثل تراث جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا والكواكبي وابن باديس وغيرهم من المفكرين الأوائل ، فيما يبدو بفعل انهيار الاتحاد السوفيتي و أفول عصر الأيدلوجيات الكبرى ، وبروز الحاجة إلى بناء معرفي وفكري ثر يغني الخطاب الإسلامي الحالي بعد أن استنزفته الصراعات السياسية مع الأنظمة الحاكمة وسرقت جهوده على حساب جوانب الإبداع الفكري والمعرفي الذي تميّز به تراث الأوائل ، مثل : الأفغاني وعبده ورضا وخير الدين التونسي وغيرهم .

وقد شهدنا في السنوات الأخيرة عدة مؤتمرات وندوات عقدت في عواصم عربية حول فكر هؤلاء الأعلام ، وكان آخر هذه الندوات قبل أيام قليلة في عمّان (15- 17 الشهر الحالي) بعنوان " مشاريع الإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث الكواكبي نموذجا "، وقد حفلت الندوة بالأوراق البحثية والتي قدّمها نخبة من الباحثين وأهل الفكر من عدة دول عربية، بيد أن الندوة لم تجب على السؤال الرئيس الذي عقدت من أجله وهو : ماذا قدّم لنا الكواكبي – في مشروعه الإصلاحي – لنتمكن من البناء عليه ؟ ..

ولعل هذا السؤال الكبير الذي لم يجد حتى أجوبة حائرة !* ، يعيدنا إلى ندوات فكرية سابقة عقدت حول مشروع الأفغاني ورشيد رضا ودور مدرسة المنار في الإصلاح ، دون أن نخرج برؤية حضارية معرفية حول : ماذا نستفيد من تراثهم الإصلاحي في عملية الانبعاث الحضاري المأمول ؟..

أقول : - وللأسف الشديد – إننا ما زلنا نمارس العدمية في تعاملنا مع تراث عصر النهضة ، ونعيد ونجتر ما كتب عنهم من جدليات وخلافات وربما محاكمات ، دون أن نقدر على استثمار هذا التراث والمراكمة على العناصر الحية فيه، وترشيد مساهمته في بناء فكر إسلامي يخدم قضايا نهضة الأمة وتحريرها ، وإذا كان البعض يتحدث عن تجاوز مرحلة المراهقة الفكرية إلى الرشد فإنني أتساءل فيما إذا كنا أصلا قد وصلنا إلى مرحلة المراهقة !.وعودة إلى موضوع ندوة الكواكبي الأخيرة فماذا يفيد في ندوة تتحدث عن مشروع إصلاحي حديث - يمكننا الاتصال به واكتشافه وغربلته ، وبعثه من جديد بعد قطيعة معرفية امتدت عقود- أن نستغرق جزءا كبيرا من نقاشنا في الاختلاف حول لحظة ولادته ، أو الجدال والنزاع في جذور العلمانية في فكره – في وقت لم يكن هناك علمانية أصلا بمفهومها الحالي – أو التفاصح حول اشتراكيته ومعانيها ! وأذكر أن جدالات مشابهة لهذه الجدالات شهدتها ندوات سابقة عن محمد رشيد رضا وجمال الدين الأفغاني ، وانتهت الندوات إلى نفس النتائج العدمية ، إن الخدمة الحقيقية لمشاريع الكواكبي وغيره من أعلام النهضة السابقين هي إقامة ندوات وأبحاث حقيقية وذات وزن معرفي وتضيف إضافات نوعية حتى وإن كانت نقدية على ما كتب سابقا ، وتعيد الفعالية لتراثهم في حياتنا الفكرية والثقافية الحالية ، كما فعلت الأمم الأخرى مع تراثها الفكري ، فلم يمض عصر النهضة الأوروبية وقته ويبذل جهوده في محاكمة العصر الإغريقي والروماني والعصور السابقة ، وإنما أفاد من التراث الذي يمكن البناء عليه ويساعد على التقدم والسير للأمام ندوات في هذا الاتجاه هي القادرة على تحقيق الهدف المنشود حتى وإن لم تصاحبها بهرجات إعلامية ودعائية ومراسم بروتوكولية تنتهي بأوراق بحثية تسيء لفكر الرجل بعد مائة عام على وفاته ! ؛ لأنّ صاحب الورقة لم يجد الوقت أو النفس العلمي العميق الذي يساعده على دراسة فلسفة المشروع الإصلاحي والشروط التاريخية والإكراهات الواقعية التي عاشها .-2-

التحليلات والأبحاث السياسية

إلاّ أنّه وللأمانة ، فإنّ ظاهرة "العدمية" ليست مقتصرة على تعاملنا مع التراث الإصلاحي ، فهي مرتبطة بتعاملنا مع قضايانا السياسية وتحليلنا وتفاعلنا مع الأحداث ، بل إن غياب الاستراتيجيات الثقافية والفكرية جعل تفاعلنا مع الأحداث تفاعلا آنيا ولحظيا بلا نتائج مثمرة وحقيقية .

وربما نجد في الأحداث الحالية في المنطقة مثالا واضحا على ما نريد الوصول إليه : فغالبية الصحف والمحللين والمثقفين يتناولون اليوم الأحداث في المنطقة بالتحليل والتنبؤ ومتابعة وترجمة وتفسير التقارير الغربية والأمريكية التي تتحدث عن مستقبل المنطقة وتداعيات الأحداث ، وربما جزء كبير من هذه التقارير يتم تسريبه عن قصد ولأهداف محددة ، ولا نجد دراسات حقيقية وواقعية من قبل المفكرين لمواجهة المرحلة القادمة ، أو يكتفون بحلول عامة ومثالية دون تحديد خطوات عملية ضمن تصورات استراتيجية تتبعها القوى السياسية وترشد الجماهير، بدلا من أن نكون فريسة سهلة للأحداث وردات الفعل الآنية تتحكم بنا وتسوقنا من كارثة إلى أخرى ، وقد تفاجأ وفد صحفي أردني عاد قبل ايام من واشنطن برؤية المسؤولين هناك أن الشعوب العربية غير قادرة على التأثير في الأحداث ، بما يؤشر على التصور الأمريكي لما يشاع عن غضب الشارع العربي من السياسة الأمريكية وعدم الاكتراث به من قبلهم .

أخشى ونحن نتحدّث اليوم عن ضرب العراق وعن إعادة رسم خارطة المنطقة للمرحلة القادمة ، والسيناريو الأسوأ أن يتم ذلك كله ، ثم نخرج بمسيرات منددين ومتذمرين وغاضبين – إن استطعنا فعل ذلك – ثم نعود إلى منازلنا لنتابع نشرات الأخبار والتقارير المسربة من واشنطن وتل أبيب ، والتي تتحدث عن مستقبلنا ، وتبقى حياتنا الثقافية والفكرية مقدّر لها أن تسير في واد والواقع السياسي والاجتماعي في واد آخر ! .

-3-

بنوك التفكير

حتى تكتمل الفكرة أود الحديث – باختصار- عن الصورة المقابلة في الغرب وفي الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا ، فيما يسمى ببنوك التفكير، والتي تكون على هيئة مراكز دراسات وأبحاث أو لجان علمية تتولى عملية إعداد دراسات وأبحاث حول السياسة الخارجية الأمريكية في العالم بما في ذلك المناطق العربية و تساهم هذه الأبحاث في إرشاد صانع القرار إلى الأجندة و الاحتمالات والخيارات التي أمامه في تعامله مع الأحداث ، وكما يقول المختصون فإن هذه البنوك الفكرية هي التي تصنع جزءا كبيرا من سياسات الولايات المتحد الأمريكية الخارجية ، وقد كانت سياسة الولايات المتحدة في العديد من الموضوعات عبارة عن تطبيق عملي لدراسات سابقة كما حدث في عمليات التسوية وغيرها ، وتتنوع هذه الدراسات في تحليل سياسات الأنظمة وسيكولوجيا الشعوب وتوقعات تفاعلها مع الأحداث ، بما يخدم صانع القرار في دراسة التغذية الراجعة لسياساته . وللأسف في مقابل هذه الحالة ، فإنّ عددا من مراكز البحوث العربية أنشئت لخدمة أهداف الدول الغربية ، والتي يتم تمويلها من قبل مؤسسات خاصة هناك ، وتعمل على توفير دراسات بما يخدم الأجندة الأمريكية ، وليس بما يتلاءم مع أولويات الحالة الوطنية والعربية والإسلامية .

وعندما تقرر السياسة الأمريكية أهدافها فإنها تضع هذه الأهداف في إطار دقيق من الخبرة الإعلامية والبحثية بما يساعدها على تبرير وتمرير الأهداف ، فتختار الحلقات الضعيفة في الحالة العربية وتمرر مشروعها من خلال ذلك ، أو ما أسميه : " مساحات الحرج " ..

فإذا كان هدف السياسة الخارجية الأمريكية ضرب العراق من أجل مزيد من الإضعاف للحالة العربية والإسلامية ، ومقدمة لتصفية حسابات أخرى مع ما تسميه الدول المرتدة ، ولخلق شروط سياسية جديدة تورط السلطة الفلسطينية في تنازلات أكبر ، فإنها تقدم أهدافها في إطار تحرير الشعب العراقي من دكتاتورية صدام ، وتخليص دول الجوار العربي من طاغية يمتلك أسلحة دمار شامل ، قد يستخدمها ضد جيرانه في لحظة هستيرية ، وتتحدث التقارير الإعلامية للشعب العراقي عن مشروع مارشال عراقي وانفراج اقتصادي وحرية سياسية ، وتؤكد أن دورها هو مساندة العراقيين على التخلص من الظلم ، ولو أن أحدهم يتبرع بإطلاق رصاصة فالأمر بالنسبة لأمريكا ينتهي هنا ، هذا الخطاب الإعلامي والسياسي الخطير ، يضعنا في حرج كبير ونحن نعارضه ، فنحن بين عراق مظلوم وشعب يفتقد لحقوق الإنسان و تغييب لحرية الناس وعدالتهم ، وبين تدخل قوات أمريكية ونحن نعلم أهدافها الحقيقية ، فنختار أهون الشرين والوقوف إلى جانب شعب العراق وليس مع الحكم ، بينما جزء كبير من الشعب العراقي يرنو إلى الخلاص من الحكم الحالي، وتنفس شيئا من الحرية المفقودة ، والذي قد يرفض وجدانه وعقله المشروع الأمريكي ، لكننا لا نملك أن ننفي أن هذا الخطاب السياسي والإعلامي الأمريكي المدروس بعناية يدغدغ حلم وأماني العراقيين في الخلاص من حالة المأساوية بمعنى الكلمة . وقس على، هذا مطالبة أمريكا بتغيير عرفات ، فلم يأت الخطاب الأمريكي بالأسباب الحقيقية – ولا مجال لمناقشتها هنا – وإنما ربط ذلك بالفساد السياسي والاقتصادي في السلطة ، وانقلبت الأمور بين ليلة وضحاها من مناقشة العدوان الإسرائيلي إلى مناقشة الإصلاحات الداخلية ، وقد استطاع الخطاب السياسي الأمريكي أن يصل إلى نقطة حساسة ويدغدغ الحلم الفلسطيني والذي كان يرى قبل ذلك فساد السلطة .

المقصود من الحديث السابق ملاحظة دور بنوك التفكير في رسم الخطاب والآليات والأجندة والمخططات . وإذا كان الفارق واضح في حجم التطور بين الواقعين ومكانة البحث العلمي ومراكز الأبحاث هناك ، بل وفي طبيعة العلاقة بين السلطة والمثقف في الغرب ، وما توفره له السلطة والمؤسسات الأخرى من إمكانيات و خدمات كي يقوم بدوره ، فإننا لا نعدم أن نقوم بما نملك ، وأن نوجه سير الأبحاث والدراسات والندوات التي نقيمها بما يخدم حركات المعارضة وخطابها ممارستها وإقلاعنا الحضاري القادم ، ويساهم في بناء استراتيجيات فكرية وثقافية

بعيدة المدى ، أو ما يمكن أن نستفيد منه مستقبلا ، وعالمنا العربي زاخر بالعلماء والمفكرين والباحثين ، وما لا يدرك كله لا يترك جلّه .

للعودة للأعلى